تاريخ الإرسال : 2016/01/02 - تاريخ القبول للنشر : 2016/05/19 تاريخ النشر : 2016/06/28

قصيدة المدح :المفهوم والتَّطوُّر

يوسف بن هورة

جامعة زيان عاشور –الجلفة–

الملخص :

جاء هذا المقال الموسوم ب: « قصيدة المدح والتطور» طارقا ضربا شعريا كان ولا يزال يشكل صدى عريضا لدى المهتمين بالدراسات الأدبية والنقدية، وهذا بسبب ما تطرحه قصيدة المدح من إشكالات بعضها يعود إلى المُنشئ (المادح) فيما يخص البواعث، وبعضها إلى المتلقي(الممدوح) في احتضان تلك المضامين،وبعضها الآخر يرجع إلى إشكالية المصطلح في حد ذاته كالمديح النبوي –مثلا– هل يمكن إدراج القصائد التي جعلت من آل البيت مادة لها ضمن المديح النبوي أم لا وغيرها، فحاولت من خلال هذه الأسطر أن أجلي هذه النقاط وأخرى وقمت بين هذا وذاك بتشفيع الأحكام بنماذج شعرية حسب ما اقتضاه السّياق.

شكل الشعر العربي القديم وعاء هائلا باعتباره حفظ المواقف المختلفة للإنسان العربي المعيشية منها والصراعية والسلمية وحتى عاداته وأعرافه فاستحق بحق ديوان العرب، هذا الديوان الذي تزين بنصوص شعرية في شتى أضرب الشعر الغنائي فظهر النفس الفخري والنفس الهجائي والنفس الرثائي والنفس المدحي.

ولعل من بين أضرب الشعر الغنائي الذي لون ذلك الديوان هو المدح،فما هو المدح كمدلول لغوي وما هي ضوابطه الاصطلاحية. وما أقسامه .وهل بقي حبيسا في الدلالات الشعرية التي دأب شعراؤه على طرقها. ألم تصدأ لغة المدح من كثرة ما لامستها الأقلام.

المدح لغة من مدحه مدحا ومِدحة: أحسن الثناء عليه كمدحه وامتدحه وتمدحه، والمديح والمِدْحة والأُمْدُوحة: ما يمدح به جمع مدائح و أماديح[1]

أما اصطلاحا فهو الثناء على شخص أو جماعة أو عقيدة أو وطن بتكريم الخصال وعلو الكعب وقداسة

المرتبة،حافزهاالإعجاب أو غيره.

و تاريخه قديم قدم الأمم وشعرائها،فقد عرفه المصريون « فدونوه على ورق البردى تكريما من الفلاح لسيِّده الفرعون »[2]، كما تغنَّى به الأدب اليوناني من خلال شاعرها الكبير هوميروس في الإلياذة و الأوديسا،واحتضنه الأدب الفارسي، و له صدى في كتابات زاردشت، وعلاوة على هذا كلِّه خصَّص له شعراء التروبادور قصائد لا تزال تختزنها كتب الأدب.

أمَّا في البيئة العربية فالتاريخ لفن المدح تعود بداياته إلى لحظة ميلاد القصيدة، فالمدح ليس أطول قامة من القصيدة ولا القصيدة أطول قامة من المدح ومن جهة أخرى هناك من ذهب إلى حد اعتبار غرض المدح « هو الأصل وسائر أغراض الشِّعر العربي وفنونه إنَّما هي تبع وفروع هو الأصل وسائر الفنون الشِّعرية هي الفروع، يقبل عليه الشُّعراء ويتعهَّدونه بالعناية ويصرفون فيه جُلَّ اهتمامهم وكأنَّما بات مستقرا في آذانهم أنَّ الشَّاعر خلق ليكون مادحا»[3].

والآن إذا كانت هذه مكانة المدح لدى الأمم منذ مطلع التاريخ فما هي دوافعه المحفزة لنظمه؟وهل هي واجدة لدى شعرائه؟

علينا أن نتَّفق بأنَّ الإجابة عن هذا التَّساؤل تقودنا حتما إلى تجاوز مبرر الحالة الانفعالية للشاعر المادح التي يمليها فعل الشعور في لحظة التداعي إلى مدى إيمانه بقناعاته الفلسفية النابعة من رؤيته للحياة لذلك نجد تباينا في الدَّواعي،فشاعر مادح يتجاذبه صدق صرف،وآخر خوف وثالث عون ورابع طمع وهكذا،فالصِّدق جسَّده زهير بن أبي سُلمى عندما رأى السِّلم واقعا يسري بين قبيلتي عبس وذبيان بفعل صنيع حكيمين من حكماء العرب هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين –كما ذكر التاريخ– حقنا دماء القبيلتين وتحمَّلا ديات القتلى بمئات النُّوق في حرب داحس والغبراء،فكان إذًا صدق الشَّاعر عاملا من عوامل تفضيل النُّقاد لزهير،فها هو عمر الفاروق النَّاقد –رضي اللّه عنه– يسمه بشاعر الشُّعراء «يا ابن عبَّاس أنشدني لشاعر الشُّعراء، قلت: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال:ابن أبي سلمى،قلت:وبم صار كذلك؟ قال: لأنَّه لا يعاضل في الكلام وكان يتجنَّب وحشي الشِّعر ولم يمدح أحدا إلاَّ بما فيه »[4].

قال زهير[5]:

يمينا لنعم السَّيِّدان وُجدتما

على كلِّ حال من سحيل ومُبرم

تداركتما عبسًا وذبيانًا بعدما

تفانوا ودقُّوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما إنْ نُدرك السِّلم واسعا

بمال ومعروف من الأمر نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن

بعيدين فيها من عقوق ومأثم

عظيمين في عليا معدّ هُديتما

ومن يستبح كنزًا من المجد يعظُم

ونموذج الخوف تمثل في النَّفس الشِّعري الذي ألقاه كعب بن زهير على مسامع النَّبي– صلى اللّه عليه وسلم– وغايته طلب النجاة في قصيدته اللامية التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيّم إثرها لم يُجز مكبول

إلى أن يقول:

إنَّ الرَّسول لسيف يُستضاء به

مهنَّد من سيوف اللّه مسلول[6]

ومن الشُّعراء الذين عكست قصائدهم المدحية طلب المساعدة والمحاولة هو ما رسَّخه الشَّاعر الجاهلي النابغة الذبياني فقد بدا متزلفا مُتكسِّبا،قال ابن رشيق القيرواني:«كانت العرب لا تتكسَّب بالشِّعر... حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك وقبل الصِّلة على الشعر،وخضع للنُّعمان بن المنذر... فسقطت منزلته وتكسَّب مالا جسيما حتَّى كان أكله وشرابه في صحاف الذَّهب والفضَّة و أوانيها...»[7].

و من مثَّل التقوُّت بالقصيدة المدحية هو الأعشى الأكبر فيُروى عنه أنَّه لم يترك حاضرة ولا بادية سعيا وراء التكسُّب.

وببزوغ النُّور المحمَّدي التفت بعض الشُّعراء إلى شخص النبي- صلَّى اللّه عليه وسلم- بعدما أسرتهم شخصيته الفذَّة صدقا وعملا فراحوا يبنون قصائد مشحونة بدلالات الحب والاعتزاز لاتِّباع محمَّد- صلَّى اللّه عليه وسلم- يقينا لا يخالطه ظن فغدا إذًا النَّبي - صلَّى اللّه عليه وسلم- وما جاء به موضوع المديح النبوي،هذا النَّوع الجديد الذي لم تعرفه العرب قبل ذلك عدَّه زكي مبارك « فن من فنون الشعر التي أذاعها التَّصوُّف فهي لون من التَّعبير عن العواطف الدِّينية،وباب من الأدب الرَّفيع؛ لأنَّها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص»(8).

والذي تجدر الإشارة إليه هو الخلط الذي قد يقع فيه بعض المهتمين بالمديح النبوي دراسة ونقدا حول القصائد المدحية التي تناولت الثناء على آل بيت النَّبي - صلَّى اللّه عليه وسلم- هل هي ضمن سياق المديح النبوي أم لا؟ ؛لأنَّ هناك شعراء قرنوا في قصائدهم مدح النَّبي - صلَّى اللّه عليه وسلم- بمدح أهل البيت «وكيف درج الشُّعراء بعد ذلك على الجمع بين مدحه ومدح آل البيت»[9].

وما ميمية الفرزدق إلاَّ دليل على ذلك و التي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه و الحلُّ والحرم[10]

و الإجابة على هذه الإشكالية نجدها عند كثيرين منهم صلاح عيد الذي ذهب إلى الفصل بينهما باعتبار «المدائح النَّبويَّة نعني بها مديح النَّبي نفسه لا مديح أفراد البيت النَّبوي،معه كما هو شائع في صورة هذا الموضوع في الأذهان وهو تحديد يفرض نفسه علميا»[11].

ومن حق المهتم بفن المديح النَّبوي أن يتساءل أيضا عن بدايات هذا الفن وعن من أرسى بواكيره من الشُّعراء وما عوامل انتشاره وذيوعه؟

لتأتي الإجابة بأنَّ ظهوره صاحب بعثة النبي - صلَّى اللّه عليه وسلم- وسار جنبا إلى جنب مع الدَّعوة الإسلامية وترجمه جمع من أصحاب القريحة المتوقِّدة حُبًّا لنبيِّها الذائبة فطرتهم في شمائله من أمثال حسَّان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد اللّه بن رواحة.

قال حسَّان[12]:

أغرُّ عليه للنُّبوَّة خاتم

من اللّه مشهود يلوح ويُشهد

وضمَّ الإله اسم النَّبي إلى اسمه

إذا قال في الخمس المؤذّن أشهد

وشقَّ له من اسمه ليجلَّه

فذو العرش محمود وهذا محمّد

نبيٌّ أتانا بعد يأس وفترة

من الرُّسل والأوثان في الأرض تعبد

فأمسى سيراجا مستنيرا وهاديا

يلوح كما لاح الصَّقيل المهنَّد

هذا وبقي المديح النَّبوي مستمرا حتى بعد انتقال النبي الأكرم– صلَّى اللّه عليه وسلم– إلى الرفيق الأعلى لأن حبه لا ينتهي بانتقال الجسد فمناقبه باقية ما بقيت السماوات والأرضين، لكن المديح النبوي الذي ظهر بعد وفاته– صلَّى اللّه عليه وسلم– أطلق عليه مصطلح المديح المتأخر، هذا المديح الذي تظافرت فيه عوامل عديدة «إنَّه ليس إلا تركيبة كيميائية من الظروف السياسية وانعكاساتها النفسية،والظروف المعيشية والفكرية، وأن الفترة الواقعة بين القرن الثالث والقرن السادس الهجري قد شهدت ظهور خلاياه الأساسية التي أخذت تتجمَّع بالتَّدريج بفعل الظروف والعوامل السَّابقة لتصل إلى تكوينها الناضج في القرن السَّابع»[13].

وهذا ما أكَّده أيضا صاحب كتاب «شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح» بأنَّ مرحلة اكتمال هذا النوع من المديح إنَّما حصلت في القرن السَّابع الهجري مع شعراء يُعدُّ البوصيري أبرزهم[14].

وكأيِّ كلِّ فن أو غرض شعري قديما كان أو حديثا من توفر دوافع و عوامل تُخوِّل له الشُّروق ليحقق انتشاره ولعلَّ أهم هذه الدَّوافع أو العوامل:

–تأجُّج الصِّراع بين عقيدة التَّوحيد وعقيدة الصَّليبية في إطار ما يعرف تاريخيا بالحروب الصَّليبية إلى درجة أنَّ المتنطِّعين من النصارى قد أوعزوا لأبناء ملتهم لعن النَّبي – صلَّى اللّه عليه وسلم– كما أشار إلى ذلك كارل بروكلمان[15].

-انهيار الخلافة العباسية على إثر حملات التتار.

-ضعف اللُّحمة السياسية بسبب الإحن الدَّائرة بين أولي الأمر من حكام وأمراء.

-تفكُّك النسيج الاجتماعي.

فكلُّ هذه العوامل وغيرها حرَّكت مشاعر بعضا من شعراء المسلمين ليلتفُّوا حول إسلامهم وحول نبيِّهم الأعظم بعدما رأوا تكالب أعداء الدِّين عليهم سبًّا وشتما ونهبا للتراث وانتقاصا لبلاد المسلمين، فتلوَّنت قصائدهم المدحيَّة بحبِّ المصطفى - صلَّى اللّه عليه وسلم- وإحياء شمائله السَّامقة بغية إيقاظ ضمائر المسلمين حتى تئيض إلى عصرها الذَّهبي أين تشرَّب فيه المسلمون الأوائل قيم الإسلام التي نقلها إليهم معلِّم البشرية فساسوا بفضلها العالم ودانت لهم رقاب الأقاصرة والأكاسرة شرقا وغربا.

فإذا كانت هذه ظروف ودوافع نشأة المديح النبوي المتأخر فما هي خصائصه التي بنى عليها شعراؤه قصائدهم؟

من جملة تلكم الخصائص:

-صدق التَّدفُّق العاطفي، دقة اللفظ، براعة المعنى، جمال الصُّورة، يضاف إلى هذا كلِّه استخدام بعض شعرائه البديع من غير تكلُّف كقصائد الإمام أبي عبد اللّه محمد بن سعيد البوصيري.

-اكتساب قصيدة المدح لمدونة لغوية عُرفت بها كتوظيف حسان بن ثابت مثلا: صلى الإله،بكر آمنة، ابن آمنة وهي في عبارات تناقلها فيما بعد شعراء هذا الفن.

ولم أشأ أن أغض الجفن عن ما أبدعه شعراء المديح النبوي وأصبح-فيما بعد- مادة تحفظ وتُروى بمناسبة وبدونها ومن أبدع ما رُوي في المشرق والمغرب قصائد الإمام البوصيري لاسيما البردة والهمزية، البردة التي تحدَّث عنها زكي مبارك مشيدا في السِّياق ذاته بمكانة ناظمها « استطاع البوصيري بتصوُّفه أن يؤثِّر في الأدب والأخلاق تأثيرا لا يدرك كنهه إلاَّ من رأى كيف تدور البردة على ألسنة العوام،وليس من القليل أن تنفذ هذه القصيدة بسحرها الأخَّاذ إلى مختلف الأقطار الإسلامية وأن يكون الحرص على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرُّب إلى اللّه والرَّسول»[16].

قال البوصيري في همزيته[17]:

كيف ترقى رقيَّك الأنبياء

يا سماءً ما طاولتها سماء

لم يساووك في علاك وقد حا

ل سنًا منك دونهم وسناء

إنَّما مثَّلو صفاتك للنَّا

س كما مثَّل النُّجومَ الماء

أنت مصباح كلِّ فضل فما تصد

ر إلاَّ عن ضوئك الأضواء

وممَّا قيل أيضا في هذا الفن ما نشره المقري في كتابه «نفح الطيب» من شهادته على انتشاره «... لبعض أهل المغرب الذين لهم في منازل الأمداح النبوية مقيل وتعريس»[18].

ثم أتبع ذلك بشواهد شعرية من قصيدة للشاعر ابن الجنان مصليا فيها على معلم البشرية ومستعرضا لعدد من شمائله.

قال ابن الجنان [19]:

خير الأنام وخير مبعوث أتى

بالنُّور يصدع غيهب الظلماء

ختَّام ديوان الرسالة والهدى

فتَّاح باب شفاعة الشُّفعاء

ذاك الذي يأوي لظلِّ لوائه

يوم الحساب جماعة التبعاء

ويشاهد الأشهاد عزَّ مقامه

وسموه في رتبه العلياء

فجميعهم يرجو النَّبيَّ وإنَّما

يرجى العظيم لأعظم الأشياء

لا أزعم أنّني ألممت بقصيدة المدح،إنّما قمت ههنا ببسط المفهوم و تتبَّعت مسار المديح في بعض فتراته ذاكرا بعضا من أعلامه،مقتفيا تطوره، وما يمكن التّوصل إليه بعد هذا الإستقراء لقصيدة المدح أنّها لا تزال بها زوايا بكرا لم يصلها يراع المتذوّق للشّعر العربي ولا النّقاد أصحاب البصيرة، فما على هؤلاء وهؤلاء إلاَّ التَّنقيب على نماذج مدحيَّة تصل بالشّعر العربي إجمالا وبالمولعين بشعر المدح خصوصا إلى مزيد إثراء.

الهوامش:

1–القاموس المحيط،مجد الدين بن محمد بن يعقوب الفيروزابادي،تحقيق: مجدي فتحي السيد،المكتبة التوفيقية،القاهرة،دط،دت،مادة (مدحه).

2–أحلى قصائد المدح،عزلي سكر،المؤسسة الحديثة للكتاب،لبنان،ط1، 1994م،ص:6.

3–المدائح النبوية في الشعر الأندلسي،فاطمة عمراني،مؤسسة المختار،القاهرة،ط1، 1432ه/2011م، ص: 101.

4–الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني،تحقيق: إحسان عبَّاس وإبراهيم السعافين وبكر إحسان،دار صادر،بيروت،ط1، 1423ه/2002م، 10/227.

5–ديوان زهير بن أبي سلمى،شرح:علي حسن فاعور،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1408ه/1988م، ص:106،105 .

6–ديوان كعب بن زهير، تحقيق: علي فاعور،دار الكتب العلمية ، بيروت، دط، 1417ه/1997م،ص: 60و67 .

7–العمدة في صناعة الشعر ونقده،أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني،تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان،ط1، 1420ه/2000م، 1/119.

8–المدائح النبوية في الأدب العربي،زكي مبارك،منشورات المكتبة العصرية،بيروت،دط،دت، ص: 17 .

9–المصدر نفسه، ص: 57.

10–ديوان الفرزدق،شرح علي فاعور،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1407ه/1987م، ص: 511.

11– المدائح النبوية في الشعر العربي من عصر النُّبوّة حتى البوصيري،صلاح عيد ،مكتبة الآداب،القاهرة،ط1، 1429ه/2008م،ص:10.

12–ديوان حسان بن ثابت الأنصاري،شرح:عبدأ.مهنَّا،دار الكتب العلمية،بيروت،ط2،1414ه/1994م،ص:54.

13– المدائح النبوية في الشعر العربي من عصر النُّبوّة حتى البوصيري،صلاح عيد ،مكتبة الآداب،القاهرة،ط1، 1429ه/2008م،ص:11.

14– شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح،محمّد الطاهر بن عاشور، تعليق:محمّد الطاهر بن عاشور،تقديم: عبد الوهاب الدخلي وجمال الدين دراويل،دار الجنوب للنشر،تونس،دط،2008م،ص:9.

15– المدائح النبوية في الشعر العربي من عصر النُّبوّة حتى البوصيري،صلاح عيد ،مكتبة الآداب،القاهرة،ط1، 1429ه/2008م،ص:96.

16–المدائح النبوية في الأدب العربي،زكي مبارك، منشورات المكتبة العصرية،بيروت،دط،دت، ص:198،197.

17–ديوان البوصيري،تحقيق:محمّد سيّد كيلاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء،دط،دت،ص:48.

18–نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،أحمد بن محمّد المقري،تحقيق:إحسان عبَّاس،دار صادر،بيروت،ط1، 1968م، 7/438.

19–ديوان ابن الجنان الأنصاري الأندلسي،تحقيق: منجد مصطفى بهجت،دط، 1410ه/1990م، ص: 72.

قائمة المصادر والمراجع:

1– أحلى قصائد المدح،عزلي سكر،المؤسسة الحديثة للكتاب،لبنان،ط1، 1994م.

2–الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني،تحقيق: إحسان عبَّاس وإبراهيم السعافين و بكر إحسان،دار صادر،بيروت،ط1، 1423ه/2002م.

3- ديوان البوصيري،تحقيق:محمّد سيّد كيلاني،دار الرشاد الحديثة،الدار البيضاء،دط،دت.

4- ديوان ابن الجنان الأنصاري الأندلسي،تحقيق: منجد مصطفى بهجت،دط، 1410ه/1990م.

5- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري،شرح:عبدأ.مهنَّا،دار الكتب العلمية، بيروت،ط2، 1414ه/1994م.

6- ديوان زهير بن أبي سلمى،شرح:علي حسن فاعور،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1408ه/1988م.

7- ديوان الفرزدق،شرح علي فاعور،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1407ه/1987م.

8- ديوان كعب بن زهير، تحقيق: علي فاعور،دار الكتب العلمية ، بيروت، دط، 1417ه/1997م.

9- شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح،محمّد الطاهر بن عاشور، تعليق:محمّد الطاهر بن عاشور،تقديم: عبد الوهاب الدخلي وجمال الدين دراويل،دار الجنوب للنشر،تونس،دط،2008م.

10- العمدة في صناعة الشعر ونقده،أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني،تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان،ط1، 1420ه/2000م.

11- القاموس المحيط،مجد الدين بن محمد بن يعقوب الفيروزابادي،تحقيق: مجدي فتحي السيد ،المكتبة التوفيقية،القاهرة،دط،دت.

12-المدائح النبوية في الأدب العربي،زكي مبارك،منشورات المكتبة العصرية،بيروت،دط،دت.

13- المدائح النبوية في الشعر العربي من عصر النُّبوّة حتى البوصيري،صلاح عيد ،مكتبة الآداب،القاهرة،ط1، 1429ه/2008م.

14- المدائح النبوية في الشعر الأندلسي،فاطمة عمراني،مؤسسة المختار،القاهرة،ط1، 1432ه/2011م.

15- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،أحمد بن محمّد المقري،تحقيق:إحسان عبَّاس،دار صادر،بيروت،ط1، 1968م.